خباب بن الأرت

للأستاذ كامل محمود حبيب

« رحم الله خباباً ، أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلي في جسمه أحوالا ، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا »
(علي بن أبي طالب)

هذا هو (خباب ابن الأرت) فتى لم يبلغ الثلاثين من سنى حياته ، أيّد جلد، وثيق الأركان متكتل العضل يغدو ويروح على حاجات مولاته (أم أنمار) وحديث قريش ما ينفك يصك مسمعيه ، وهو عنه في شغل ... ودوّى الحديث في أرجاء مكة يزلزل القلوب والأقدام وعلى كل لسان كلمة واحدة : محمد ... محمد ! وإن زعماء قريش وذوى الجاه فيها ليضطربون يوجسون خيفة مما جاء به محمد

وجلس خباب إلى نفسه يقلب الرأى ، وقد فرغ من حاجات سيدته : محمد ! أي بأس على الرجل ، وهو الصادق الأمين ؟ تالله ما علمنا عليه من سوء منذ كان . أفيفترون عليه الكذب بعد أن بدا الشيب في صدغيه ؟ ثم ما هذه الأصنام التي أراهم يعبدون ؟ أخفاً أن فيها آلهة ؟ ليت شعري أي الحزبين أهدى سبيلاً وأقرب رشداً ؟

ثم ... ثم غدا على مجلس رسول الله (ص) يريد أن يستطلع خبر الدين الجديد ؛ وإن رجليه لتختلجان من الرعب ، وإن قلبه ليفزّع من الذعر ، خشية أن تراه أعين شياطين قريش فيبطشوا به ، وهو هنا وحده لا تربطه بالقوم آصرة رحم ولا وشيجة قربى فيأمن كيدهم أو ينجو من مكرهم .. وفي مجلس النبي الكريم جلس خباب يسمع ، وإن حلاوة الحديث لتبدد وساوس نفسه ، وإن الإشراق الإلهي ليتدفق في قلبه فيجلو صدأه ، ثم ... ثم اطمأن قلبه للإيمان ، فبدا رجلاً غيره ، يعلن عن إسلامه في غير رقبة ولا حذر

يا عجبا ! أي سر خفي انسب في قلب الرجل فأصبح لا يفزع من شر قريش جميعاً ، وهو كان يفرق من أن تراه عين وهو يدلف إلى مجلس رسول الله (ص) ؟ لا ريب فهذا هو الإيمان الحق حين يتغلغل في النفس ، فينتزع الإنسان من معانيه الأرضية ليكون في معانيه السماوية فحسب

ورضي رسول الله (ص) عن خباب فكان يحبوه بعطفه ، ويخصه بعنايته ، ويألفه ويأتيه. وتناهى الخبر إلى سيدته (أم أنمار) فحاولت عبثاً أن تقف بينه وبين سيده . ولما أعجزها أن تنال بغيتها راحت تذيقه العذاب البئيس في غير شفقة ولا رحمة . ثم ... ثم انفلت إلى رسول الله (ص) يكشف له عن أثر ميسم أم أنمار في رأسه ، وعيناه تتحلبان من فرط الأسى ، فدعا له النبي : اللهم انصر خباباً . فما تلبث غير قليل حتى أخذت أم أنمار العلة ، فهي تموى عواء الكلاب ، وخباب يكوى رأسها بميسم يتوهج ، علها تبرأ من علتها أو تذوق وبال أمرها

وكبر على قريش أن يقوم رجل منهم يثلب آلهتهم ويسفه أحلامهم ويعيب دينهم ، فشرى الأمر بينهم وبين النبي الكريم ، فتذامروا يتواثبون على المسلمين يعذبونهم فتوناً من العذاب ، وإن الشيطان ليوسوس لهم يريد أن يدفعهم إلى غاية ، وهم يرتدغون في الضلالة ، ويتخبطون في الظلمات ، وقد طم العمى على قلوبهم ، وبين أيديهم جماعة من ضعفاء المسلمين : خباب وصهيب وبلال وعمار وسمية و ... يلبسونهم أدراع الحديد ، ثم يلقون بهم بين لفحات الحر ووقدات الهجير ، وهم صُبر على حر الحديد وأوار الشمس ، وخباب من بينهم تسخر شجاعته من غيظ الكافرين .

يا لله ! إن في الإنسان نوازع إذا سيطرت عليه استحال إلى حيوان لا يجد في نفسه معنى من معاني الإنسانية ، وهكذا كانت قريش حين أخذتهم ثورة الغضب والغيظ ، ورانت عليهم سورة السلطان والجاه ، فذهبوا يفتنون في أذى المستضعفين من المسلمين ...

أى شىء جنى خباب فيلصقوا ظهره بالرضف فى قسوة وغلظة ثم ما يزالون به حتى يذهب لحم متنه ؟

أى ذنب ارتكب خباب ليأخذوه إلى نار تتسعر يسلقونه فيها ، ثم ما يبرح الواحد منهم يضع رجله على صدره ، فما يتقى الأرض إلا بظهره ؟

واستشعر خباب العذاب يأكل لحمه ويفرى جلده ، وما له مفزع سوى رسول الله (ص) فانطلق إليه يستنصره على ما يلقى من فظاظة قريش وجفوتهم ... فقال له رسول الله (ص) وإن أثر الغضب ليبدو فى وجهه : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه مايصرفه عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل والذئب على غنمه ، ولكنكم تعجلون » . فخرج خباب ورفاقه من لدن الرسول يستعذبون الأذى فى سبيل الله

وفزع المسلمون بدينهم إلى الحبشة ، وخباب بإزائهم يودعهم إلى مهاجرهم ، وعيناه تفيضان من الدمع حزناً على فراق أحباء نفسه فى العزاء ورفقاء قلبه فى الشدة ، ثم هو ما يريد أن يتحول عن مشرق النور من وجه النبي الكريم ، على حين يرى فيه السلوة والعزاء ؛ وقريش تشتط فى عذابه ، فما تنال منه أرباً ، ولا تبلغ منه غرضاً وفى قلبه الإيمان ...

وهاجر ـ فيمن هاجر ـ إلى المدينة ليعيش إلى جانب سيده يشهد المشاهد كلها لايستشعر الوهن ولايتسرب إلى نفسه الخور، ثم هو بين صحابة الرسول (ص) فى المنزلة والشرف ...

ولحق النبي الكريم بالرفيق الأعلى ، فتهللت عبرات خباب مدراراً حين أحس لذع الفراق فى قرارة نفسه ، غير أن الأسى ما كان ليبذر فيه غراس الوهن فى دينه أو الضعف فى إيمانه ، فانطلق إلى غايته يبذل النفس والمال فى سبيل الله ، وصحابة رسول الله (ص) يعرفون له حقه ويكرمون وفادته . وإن عمر ابن الخطاب فى خلافته ليراه يدخل عليه فيقول له : ادنُ ، فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار بن ياسر . فيأخذ خباب بريه آثاراً فى ظهره مما عذبه المشركون ...

لقد كشف عن ظهره لينشر آلام جسمه على عيني عمر ، أو ليكشف عن سمات جهاده فى دين الله ، فإذا هو قد برّص من كثرة ما ناله من أذى ...

وانشقت العصا ومرج الأمر وراح كل حزب بما لديهم يفاخرون ، وخباب بالكوفة بين صحابة على تحبسه العلة ، ويقعده السقام ؛ فلا يجد القوة على نصرة علىٍّ بنفسه... وألح عليه المرض يدفعه إلى غاية كل حى وفى نفسه أن يتمنى الموت ، من طول ما عركه المرض ، لولا أنه سمع رسول الله (ص) يقول : لايتمنى لأحد أن يتمنى الموت ...

وعاد خباباً نفرٌ من أصحاب رسول الله (ص) وهو فى علته التى مات فيها فقالوا له : أبشر يا أبا عبد الله ، إخوانك تقدم عليهم غداً . فتدفقت العبرات من عينيه وهو يقول : أما إنه ليس بى جزع ، ولكن ذكرتمونى أقواماً وسميتموهم لى إخواناً ، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما هى ، وإنى أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا من بعدهم . هذا هو كفنى قباطى ، ولكن حمزة عم النبي (ص) كفّن فى بردة كانت إذا مدت على قدميه قلصت عن رأسه ، وإذا مدت على رأسه قلصت عن قدميه حتى جُعل عليه إذْخِر[1] . ولقد رأيتنى مع رسول الله (ص) ما أملك ديناراً ولا درهما ، وإن فى ناحية بيتى الآن ، فى تابوتى ، ألف وافٍ . ولقد خشيت أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا

لا ضير ، فهذا حديث خباب بن الأرت سادس ستة أسلموا أول ما بزغ النور الإلهى من جبين المصطفى (ص) هو حديث الإيمان المحض الذى ما يزال يتوثب فى القلب فيشغله عن آلام نفسه ليذره بين الطمع والخوف

ودفن خباب ـ أول من دفن ـ بالظهر من الكوفة

ومرّ علىٌّ ـ حين رجع من صفين ـ بقبر خباب ، يشيّع الراحل بكلمات : رحم الله خباباً ! أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلى فى جسمه أحوالاً ، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

فرحم الله خباباً .

كامل محمود حبيب

(١) هو حشيش أخضر طيب الريح .